الفصل الثامن

العقل والحرية بين فرح أنطون ومحمد عبده
سجال «الجامعة» و«المنار»(*)

حسن حنفي

أولاً: السجال بين الخارج والداخل

وهو السجال الشهير بين فرح أنطون ومحمد عبده، بين **الجامعة** و**المنار**. ولفظ «الجامعة» اشتقاقاً يفيد الحوار والضمّ والتآلف وليس الفرقة والتشيّع والتحزب. كذلك يفيد لفظ «المنار» اشتقاقاً معنى الاستنارة والتسامح والعقلانية. فاللفظان إيجابيان بالرغم من اختلاف المواقف بين المجلّتين؛ إذ تعبّر الأولى عن التيار العلمي العلماني، بينما تعبّر الثانية عن الحركة الإصلاحية(١).

وهو ليس سجالاً بين المسيحية والإسلام. فالمسيحية متعددة الاتجاهات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. والإسلام أيضاً متعدد الاتجاهات من أقصى الأشعرية السلفية إلى أقصى الاعتزال وأصحاب الكمون. إنما السجال بين رأيين وموقفين شائعين، موقف فرح أنطون الذي يمثل أحد المواقف الغربية من الدين والعلم أو الدين والمدنية، وهو التيار العلمي العلماني الذي يفصل بين الدين والعلم، وبين الدين والدولة. فالدين إيمان قلبي، والعلم برهان تجريبي. الدين قطع واعتقاد وإطلاق، والعلم نسبية واحتمال وتغيّر.

وهو السجال نفسه بين رينان والأفغاني، يعيد فرح أنطون بناءه ويستدعيه من

(*) نشرت هذه الدراسة ضمن ملف «فلسفة الحرية» في: **المستقبل العربي**، السنة ٣١، العدد ٣٥٩ (كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩)، ص ١٣٩ ـ ١٤٧.

(١) فرح أنطون، **ابن رشد وفلسفته مع نصوص المناظرة بين محمد عبده وفرح أنطون**، قدم لها أدونيس العكرة، المؤلفات الفلسفية؛ ٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١)، ص ٩٧-١٨٤.

جديد. ففرح أنطون هو رينان العرب، وفي رأي رينان أيضاً أن الدين من ناحية، والخرافة والأسطورة والجهل والتخلف والقهر من ناحية أخرى، متلازمان. أما العلم فإنه متلازم مع العقل والطبيعة والحرية والتقدم. استبعد فرح أنطون الجانب العنصري عند رينان والربط بين الدين والعقلية السامية، والعلم والعقلية الآرية.

وفي السجال يأخذ فرح أنطون موقف الأشاعرة ويعممه على الإسلام ككل، انتقالاً من الخاص إلى العام. وهو موقف يسهل نقده باسم العقل والعلم وحرية الإرادة. ويأخذ محمد عبده موقف المعتزلة الذي يقوم أيضاً على العقل والعلم وحرية الإرادة. فلا خلاف بين الاثنين من حيث الهدف والدعوة، إنما الخلاف في الجهة والمصدر. فرح أنطون يستمد ذلك من الخارج، من الغرب الحديث، ومحمد عبده يستمده من الداخل، من التراث الإسلامي ذاته. يظن فرح أنطون أن ما يدعو إليه ليس موجوداً في الدين، ويرى محمد عبده أن ما يدعو إليه موجود في الدين. الخلاف في التجربتين، الغربية والإسلامية، نظراً إلى طبيعة المعطى الديني في كلتا الحضارتين، المسيحية والإسلامية، وخصوصية كلّ منهما. فالمسيحية دين يقوم على أن الإيمان سر يتجاوز حدود العقل، وأن الإرادة الإنسانية لا تصبح حرة إلا بعد أن يتدخل الفضل الإلهي، فهي أشبه بالكسب الأشعري، وأن الخطيئة في الطبيعة البشرية لا يقوى عليها إلا المخلّص، وأن الطبيعة لا تخضع لقوانين ثابتة نظراً إلى معجزات السيد المسيح، وأن المؤمن لا يستطيع أن يتوجه إلى الله مباشرة إلا عن طريق الكنيسة، وأن مصير الإنسان مرتبط بإيمانه وليس بأعماله. في حين أن الإسلام يقوم على العقل وحرية الإرادة وثبات قوانين الطبيعة والأخذ بالأسباب، والجمع بين الإيمان والعمل، والعلاقة المباشرة بين الإنسان والله، دون توسط، وغياب السلطة الدينية. صحيح أنه في الحركة الإصلاحية المسيحية، وما تلاها من فلسفات عقلانية عند ديكارت وكانْط، هناك اقتراب من التراث الاعتزالي. كما أن في الإسلام تراثاً سلفياً يقترب من المسيحية التقليدية التي يمثلها توما الأكويني. فكل تراث به تياران. والسجال بين فرح أنطون ومحمد عبده ليس سجالاً بين المسيحية والإسلام بل بين المسيحية السلفية والإسلام الاعتزالي. ولو كان السجال بين «توماوي» و«أشعري» أو بين «كانْطي» و«معتزلي» لبان الاتفاق بين الدينين.

لذلك يقوم محمد عبده بتصحيح فهم فرح أنطون للعقائد الكلامية في الرد الأول عليه، وفي الموضوعات الأربعة التي أثارها، وهي: الوجود، وخلق العالم والاتصال بالخالق، وطريق الاتصال، والخلود. ويدافع محمد عبده عن السببية في الطبيعة وحرية الإرادة في الإنسان، من داخل التراث الإسلامي وليس من خارجه. ما يعتبره فرح أنطون موجوداً في الغرب وليس في الإسلام، يعتبره محمد

عبده موجوداً في الإسلام وليس في المسيحية. فرح أنطون يتكلم على الغرب الحديث ومحمد عبده يتحدث عن المسيحية العقائدية التقليدية. في ذهن فرح أنطون الإسلام الأشعري، وفي ذهن محمد عبده الإسلام الاعتزالي.

لقد أخطأت مقالات **الجامعة** في ادعائها أن المتكلمين ينكرون الأسباب في الطبيعة وحرية الإرادة في الإنسان. ومعركة ابن رشد ضد الغزالي في **التهافت** دليل على ذلك. إذ يدافع ابن رشد عن السببية باسم العقيدة الإسلامية، وأن الله عاقل حكيم. وليس من حكمته أن يعيش الإنسان في عالم لا يخضع لقانون، وإلا استحال تنظيم الحياة. إنما الخلاف هو في تصوّر المتكلمين ووقوعهم بين اختيارين كلاهما مرّ: إعطاء الأولوية للإرادة على الحكمة كما يفعل الأشاعرة، وإعطاء الأولوية للحكمة على الإرادة كما يفعل المعتزلة وابن رشد. كما أخطأت **الجامعة** في عرضها العقائد التفصيلية عند المتكلمين حول الحدوث والإيجاد، والاتصال، والنفس، لأن فرح أنطون أقرب إلى المستشرقين، فهو يأخذ علمه من الكتب الثانوية وليس من علماء الأمة الذين يستمدون علمهم من المصادر الرئيسية.

ويقوم فرح أنطون بجبه المتكلمين بالفلاسفة. فإن الفلاسفة يقولون بالأسباب وهو ما يؤدي إلى هزّ العقيدة، وإبطال الوحي الإلهي، واعتباره قوة طبيعية موجودة في الرؤيا والإلهام والحدوس وأشكال المعارف المباشرة، وإنكار البعث والحشر والقيامة، وإبطال المعجزات، لأنها جهل بقوانين الطبيعة وخداع للحواس، وإبطال علم الله بالجزئيات، واعتباره أملاً للإنسان في مواصلة الحياة ورغبة في تخيّل عالم أفضل، وإعطاء الأولوية للاستنباط على الاستقراء، وللمبادئ الكلية على الجزئيات الحسية. وقد استطاع ابن رشد، اعتماداً على قانون التأويل، التوفيق بين الفلسفة والدين أو الحكمة والشريعة، حتى يزيل هذا التناقض بين المتكلمين والفلاسفة، ويعيد بناء العقيدة على أسس فلسفية خالصة. وبعد استعمال فرح أنطون الفلاسفة ضد المتكلمين، ينقد الفلاسفة ومذهبهم في العقول والأجرام السماوية. وهذا غير صحيح، فقد كتب الفلاسفة، مثل الفارابي، ضد التنجيم، أي الشكل الخرافي لعلم أحكام النجوم أو علم الهيئة. وكانوا من مؤسسي علم الفلك في صيغته العلمية الحديثة في الغرب، كما يشهد بذلك المستشرقون أنفسهم.

وفي الرد الثاني، يبيّن محمد عبده موقف الإسلام والمسيحية من قضية الحرية والاضطهاد، وفي أيّ الدينين كثر هذا الأخير أو قلّ. يرى فرح أنطون أن فصل السلطتين الدينية والسياسية هو سبب تقدم الغرب وحصوله على الحريات الفكرية، واحترام الرأي الآخر، والتسامح ضد تعصب الرأي واضطهاد المخالفين. وتمّ ذلك

بجهود الفرير والفرنسيسكان. وفي رأي محمد عبده أن ذلك من صلب الإسلام، بالنص القرآني: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[٢]. إلا أن عدم معرفة فرح أنطون بالتراث الإسلامي العقلاني جعله يعزو الحرية إلى الغرب، ويجعل الاضطهاد متلازماً مع الشرق. وهو ابتسار للغرب والشرق معاً. فكم سقط من شهداء الفكر الحرّ في الغرب، منذ محاكم التفتيش وحرق جيورادنو برونو، والمذابح المتبادلة بين البروتستانت والكاثوليك حتى الآن.

ويبرئ محمد عبده الإسلام من تهمة الاضطهاد، وينفي التقاتل بين المسلمين لأجل الاعتقاد، ويبيّن تسامح الإسلام مع العلم والعلماء، وقبوله باقي الأقوام مثل الفرس والأتراك. فالإسلام يقوم على تعدد الثقافات واللغات بل والأديان. فالوحدة في الاختلاف ﴿**وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾، ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة**﴾[٣]. ثم يردّ على الخصوم، ويبيّن أن طبيعة الدين المسيحي مناهضة للعلم والعقل والمدنية، تؤمن بالخوارق، وسلطة الرؤساء، وتعتمد على غير العقل، وتترك الدنيا، وتؤمن باحتواء الكتاب المقدس كل شيء، وتفرّق بين المسيحيين.

ويعبّر فرح أنطون عن دهشته وأسفه لهذا التصور. ويبيّن أن المسيحية أكثر تسامحاً مع الفلسفة، كما أن الإسلام أكثر تسامحاً مع العلم. فالفلسفة داخلة في تشكيل العقائد المسيحية منذ بداياتها الأولى، والعلم قائم على العقل والطبيعة. كما إن المسيحية تؤاخي القريب بناء على حب الجار، مما قد يتطلب استبعاد الغريب. وتقرّب بين جماعات المؤمنين في مقابل غير المؤمنين. وتفصل بين السلطتين الدينية والسياسية، وبين الكنيسة والدولة، مما جعل الشعوب الغربية أكثر قدرة على التحرر والتقدم وتأسيس الدول الحديثة.

ثانياً: المماثلة اللاتاريخية بين الآخر والأنا

من الواضح أن تحليل العلاقة بين الأنا والآخر في هذا التيار العلمي العلماني في الفكر العربي الحديث، الذي يمثله شبلي الشميّل وفرح أنطون وسلامة موسى وإسماعيل مظهر وزكي نجيب محمود وفؤاد زكريا، نظراً إلى معرفته المستفيضة بالآخر لانتمائه الثقافي إليه، ومعرفته الأقل بالأنا نظراً إلى عدم انتمائه الثقافي إليه، جعله يعطي الآخر أكثر مما يستحق، ويعطي الأنا أقل مما يستحق.

---

(٢) **القرآن الكريم**: «سورة البقرة،» الآية ٢٥٦، و«سورة الكهف،» الآية ٢٩ على التوالي.

(٣) المصدر نفسه: «سورة الحجرات،» الآية ١٣، و«سورة هود،» الآية ١١٨ على التوالي.

الخير كله يأتي من الآخر، العقل والعلم، وحرية الإنسان، ونظام الطبيعة، والتقدم في التاريخ. والشر كله يأتي من الأنا، الأسطورة والخرافة والتخلف.

فعند فرح أنطون الغرب مهد احترام الأديان، والإيمان بالعقل، وجعل العلم قاعدة العمران، وفصل الدين عن الدولة وهو بيت القصيد. فقد أدى هذا الفصل في رأيه إلى إطلاق الفكر الإنساني من كل قيد، لصالح مستقبل الإنسانية، وجعل العقل في مقابل القلب، والعلم في مواجهة الدين. كما أدى إلى المساواة بين أبناء الأمة طبقاً للحق الطبيعي وإلغاء طبقة الأشراف وسلطة الباباوات ورجال الدين والكهنوت. وكان من آثاره عدم تدخل الدين في الأمور البشرية، وتركها لمصالح البشر وحسن تقديرهم، وعدم زجّ الدين خارج نطاقه، وهي العلاقة الشخصية الإيمانية بين الإنسان والله. وهذا الفصل قضى على السبب الرئيسي لضعف الأمم وهو تدخل رجال الدين في الشؤون السياسية، والخلط بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة. كما انتهى إلى إثبات استحالة الوحدة الدينية بين الشعوب المنتسبة إلى الدين نفسه. فطالما نشبت الحروب بين أهل الدين الواحد، وكم من الرقاب قطعت والأرواح أزهقت باسم الله وباسم الدين.

وقد عبّر فرح أنطون عن ذلك أيضاً في أعماله الروائية الثلاثة: **أولاً**، في **رواية الدين والعلم والمال**، هناك ثلاث مدن، اثنتان جاهلتان، هما مدينة الدين ومدينة المال، وواحدة فاضلة هي مدينة العلم بتعبير الفارابي القديم. وطبقاً لقانون الحالات الثلاث الحديث عند كانْط، هي تمثل انتقال الإنسانية من مرحلة الدين إلى مرحلة الميتافيزيقيا إلى مرحلة العلم. وفي النظم السياسية انتقال المجتمع من النظام الإقطاعي، الذي مثّلته الكنيسة الكاثوليكية، إلى النظام الرأسمالي الذي مثّلته البروتستانتية إلى النظام الاشتراكي الذي مثلته العلمانية. **ثانياً**، عرض فرح أنطون الموضوع نفسه، ولكن على نحو مختلف، في رواية **الوحش، الوحش، الوحش**، أو **سياحة في أرز لبنان**، مهاجماً رجال الدين الذين يعيشون عالة على الآخرين. وهو موقف سبينوزا نفسه في هجومه على أحبار اليهود الذين كوّنوا طبقة انتهازية عشوائية بين الشعب والملوك. **ثالثاً**، يعرض فرح أنطون إمكانية الثورة الاجتماعية على رجال الدين في روايته **أورشليم الجديدة** أو **فتح العرب بيت المقدس** ضد التعصب الديني والطائفي، داعياً إلى التسامح والاعتدال والاحتكام إلى العقل وطلب الخير للجميع[٤].

---

(٤) فرح أنطون، **الدين والعلم والمال أو: المدن الثلاث؛ الوحش، الوحش، الوحش أو: سياحة في أرز لبنان؛ أورشليم الجديدة أو: فتح العرب بيت المقدس**، قدم لها أدونيس العكرة، المؤلفات الروائية؛ ١ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩).

والحقيقة، أن هذه الصورة الوردية للغرب تعطيه أكثر مما يستحق، وترى النتائج دون المقدمات، والنهايات دون البدايات. تبتسر التجربة الغربية في حصيلتها الإيجابية، وتغفل جدل التاريخ. فاحترام الأديان في الغرب إنما نشأ بعد حروب دينية طويلة: اضطهاد المسيحيين لليهود أولاً، ثم للمسلمين ثانياً، كما مثلته الحروب الصليبية ثم محاكم التفتيش في الأندلس بعد سقوط غرناطة. ثم استمرت حروب الأديان بين المسيحيين أنفسهم، بين البروتستانت والكاثوليك منذ مارتن لوثر حتى إيرلندا الشمالية. كما إن تشويه الأديان الأخرى في الاستشراق وفي العلوم الاجتماعية وفي أجهزة الإعلام الغربية ربط الديانات الأخرى غير المسيحية بالأسطورة والخرافة والجهل والتخلف. فجاء الإيمان بالعقل على نقيض الإيمان بالدين، حتى توجه العقل ضد الدين والعقائد، مثبتاً انحرافهما عن وظيفتهما الأولى في التربية الخلقية والاجتماعية. وتسود الآن في الغرب، ومنذ نهاية القرن الماضي، دعوات إلى تحطيم العقل منذ نيتشه والفلسفات الحيوية وتيارات العبث واللامعقول حتى الحركات المعاصرة مثل التفكيكية وما بعد الحداثة، التي تنفي العقل والنظام وتعتبرهما أحد أشكال السيطرة، وتنتقل من ديكارت **مقال في المنهج** إلى فاير آبند **ضد المنهج**، ومن توماس بين **عصر العقل** إلى لوكاتش **تحطيم العقل** وفاير آبند **وداعاً للعقل**.

أما اعتبار العلم قاعدة العمران فقد انتهى إلى نقد العلم والنزعة العلمية التي قضت على الإنسان باعتباره ذاتاً ووعياً، نظراً إلى ارتباط العلم بالموضوعية عند انتقاله من العلوم الطبيعية إلى العلوم الإنسانية. كما انتهى عملياً إلى السيطرة والقوة والمركزية الأوروبية في الداخل والخارج، والنازية والفاشية والعنصرية في الداخل والخارج أيضاً. فالمعرفة قوة ومصلحة، ولم تعد همّاً نظرياً خالصاً يقوم على الدهشة. أما فصل الدين عن الدولة فلم يحدث بالفعل في الممارسات العملية. فما زالت الكنيسة أداة في أيدي السياسيين منذ علاقة التبشير بالاستعمار في القرن الماضي، وما زالت الدولة تعتبر الدين نوعاً من الدين المدني كما هو الحال في الولايات المتحدة، وتفتخر بالرئيس الكاثوليكي والوزير اليهودي وسيطرة «الواسب» (WASP) «البروتستانت البيض الإنغلوسكسون». فإسرائيل دولة يهودية، والصرب وروسيا راعيتان للأرثوذكسية، وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا دول راعية للكاثوليكية.

كما إن فصل الدين عن الدولة لم يؤدِّ إلى كل هذه المآثر الخمس التي يثني عليها فرح أنطون:

١ ـ هذا الفصل ربما أطلق الفكر الإنساني من قيد الدين، ولكنه أوقعه في

قيد دين آخر، هو قيد المذهبية. فقد تحولت المذاهب والمناهج إلى أيديولوجيات سياسية يتحزب لها الأفراد والجماعات والشعوب. وبدل أن تقع الحروب باسم الدين، باتت تقع باسم الأيديولوجيا، بين النازية والفاشية من ناحية، والاشتراكية والرأسمالية من ناحية أخرى، ثم بين الرأسمالية والاشتراكية. بل إن العقل نفسه تحول إلى بديل مطلق عن الإيمان، والعلم بديل مطلق عن الدين. فطبيعة المطلق ومصدره هما اللذان تغيرا، ولكن وظيفته وبنيته لم تتغيرا، ولا تقل القطعية العقلية عند فولف عن القطعية الإيمانية عند أوغسطين.

٢ ـ لم تتحقق المساواة بين أبناء الأمة الواحدة، فقد ورثت الرأسمالية الإقطاع الكنسي، بل قامت البروتستانتية، قبل أن تكوّن دعامة الرأسمالية، على أكتاف الإقطاع حفاظاً على الأراضي باسم الإصلاح. وأدى العقل والعلم، وهما دعامتا الرأسمالية، إلى أبشع أنواع التمايز الطبقي، والتفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء.

٣ ـ لم يتوقف الدين مطلقاً عن التدخل في الأمور الدنيوية مثل تبرئة اليهود من دم السيد المسيح ضمن قرارات المؤتمر الفاتيكاني الثاني، وكتابة عبارة «في الله ثقتنا» على الدولار الأمريكي مع صورة جورج واشنطن. وما زال الصراع دائراً بين البروتستانت والكاثوليك في إيرلندا الشمالية. وما زالت قضايا الحجاب مثارة في فرنسا، بلد الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان. والكنيسة الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية جزء من الصراع الاجتماعي والسياسي، إما مع الإقطاع والرأسمالية والعسكر وهو اختيار بعض كبار رجال الدين، وإما مع العمال والفلاحين وجيوش التحرير وهو اختيار بعض القساوسة الشبان مثل كاميلو توريز وأنصار لاهوت التحرير[٥].

٤ ـ إن ضعف الأمة ليس سببه الدين على الإطلاق، بل تفسير معين له يقوم على الخرافة وإنكار السببية في الطبيعة وحرية الإرادة الإنسانية والمساواة الاجتماعية وتبرير السلطان المطلق. وقد يكون تفسير آخر للدين على أنه ثورة ضد الخرافة والجهل من أجل إعمال العقل، وضد التسلط وقهر السلطان الجائر دفاعاً عن حرية الاعتقاد والمساواة بين البشر، أحد أسباب تقدم الشعوب. والدليل على ذلك هو الديانات في بدايتها الأولى وثورات الأنبياء على شتّى مظاهر الظلم الاجتماعي والتسلط السياسي مثل اليهودية في عهد موسى وعاموس، والإسلام الأول الذي انضم إليه الفقراء والعبيد وعاداه الأغنياء والأشراف. كما أصبح

---

(٥) انظر: حسن حنفي، «كاميلو توريز: القديس الثائر،» في: حسن حنفي، **قضايا معاصرة**، ٢ ج (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٦)، ج ١: **في فكرنا المعاصر**، ص ٢٨١ ـ ٣١٨.

لاهوت التحرير أحد روافد حركات التحرر الوطني في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، والحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي ورائدها الأفغاني.

٥ ـ لا تعني الوحدة الدينية بالضرورة الوحدة السياسية بل رابطة الأخوة التي تربط بين المؤمنين، وهي وحدة فعلية بين الشعوب حتى مع تعدد الدول الوطنية الحديثة. ولا تقضي وحدة الأمة الدينية على تعدد الأنظمة السياسية، كما هو معروف في تاريخ الإسلام في نظام الخلافة الأول، قبل أن يتحول إلى أداة قهر عند الأتراك العثمانيين. وكما قامت الحروب باسم الدين فقد قامت أيضاً باسم العلم والمصالح والأطماع والأيديولوجيات السياسية.

ثالثاً: ردود محمد عبده

يعترض محمد عبده على هذه الصورة الوردية للعلمانية الغربية. ويبيّن أن الدين معزز في فطرة البشر، حكاماً ومحكومين، لا يمكن استئصاله أو استبعاده أو تحييده. الناس في حاجة إلى دين كما هم في حاجة إلى سياسة، ويتعاملون مع رجال الدين كما يتعاملون مع رجال السياسة. وهو تصور تقليدي للدين والسياسة معاً، فالدين معزز في الفطرة ولكن ليس له رجال، كما أن السياسة نظام اجتماعي يقوم على الاختيار الحر وبيعة الحكام وليس له رجال، وإلا تمّ الوقوع في «عبادة الشخص» في الدين والسياسة على حد سواء.

ويصف محمد عبده في الردود الثالث والرابع والخامس تجربة الأنا كي يُعطيه حقّه، بعد أن أعطاه فرح أنطون أقل مما يستحق في أثناء إعطائه الآخر أكثر مما يستحق، منتقلاً من المسيحية إلى الإسلام على دعوتين: التوحيد والنبوات، أي العقليات والسمعيات. وهي القسمة الأشعرية التقليدية الموروثة من علم الكلام القديم، بمميزاتها وعيوبها. مميزاتها في جعل التوحيد من العقليات، الذات والصفات والأفعال عند الأشاعرة، والتوحيد والعدل عند المعتزلة. وكلتاهما تتفقان على وجود بعد أو حد عام شامل يتساوى أمامه الجميع، ويتجلى في مسؤولية الإنسان واستقلال عقله وإرادته. أما النبوة والمعاد والإيمان والعمل والإمامة فهي مسائل ظنية تختلف فيها الآراء ولا يقيناً عقلياً فيها.

ثم يفصل محمد عبده أصول الإسلام في سبعة:

١ ـ النظر العقلي لتحصيل الإيمان. فالعقل أساس النقل، ومن قدح في العقل فقد قدح في النقل، ولا فرق بين المعتزلة وابن تيمية في «موافقة صحيح

المنقول لصريح المعقول»، وبنص القرآن ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[٦].

٢ ـ تقديم العقل على ظاهر الشرع حين التناقض، وهو قانون التأويل الذي يعرضه ابن رشد في آخر **مناهج الأدلة**. العقل صريح، والنص حمّال أوجه. العقل محكم، والنص متشابه. العقل رؤية، والنص لغة. العقل بداهة، والنص تأويل.

ـ البعد عن التكفير، واتهام المخالفين، والشق على قلوب الناس، وإقصاء الخصوم، خاصة إذا كان لصالح السلطان ضد المعارضة، فمن قال لأخيه أنت كافر فقد باء بها.

٤ ـ الاعتبار بسنن العقل في الخلق نظراً إلى وحدة نظام العقل ونظام الطبيعة. ومن ثم يقوم الإسلام على العقل والعلم وهما دعامتا الوحي. الوحي في الفطرة، والعقل في البرهان، والعلم في الطبيعة. وسنن الطبيعة ثابتة وهي نفسها قوانين التاريخ ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾، ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾[٧].

٥ ـ رفض السلطة الدينية كعامل متوسط بين الإنسان والله بعد تجربة الأحبار والرهبان الذين جعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله. فالطاعة عبادة، والإمامة عقد وبيعة واختيار. لا حاكمية خارج البيعة، ولا سلطان هو ظل الله في الأرض.

٦ ـ مودة المخالفين في العقيدة والاجتماع معهم على كلمة سواء ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله**﴾[٨]، ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة**﴾، ولكنه جعل لكل فرد شرعاً ومنهاجاً. التوحيد يجمع البشر جميعاً ثم تتعدد الشرائع طبقاً لاختلاف الزمان والمكان.

٧ ـ الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، فلا رهبانية في الإسلام، ولا يكون رد الفعل عليها بالانغماس في الدنيا. فالإسلام ينهى عن الغلو في الدين ويدعو الناس إلى التمتع بزينة الدنيا والطيبات من الرزق. بل إن الدين وسيلة، وصلاح الدنيا وعمارة الأرض غاية. وينزل الدين على مصالح الدنيا بدليل الرخص، فالضرورات تبيح المحظورات، ولا ضرر ولا ضرار.

هذه المبادئ السبعة التي يقوم عليها الإسلام تحقق تجربة الغرب الحديثة من

---

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ١١١.

(٧) المصدر نفسه: «سورة الأحزاب،» الآية ٦٢، و«سورة فاطر،» الآية ٤٣ على التوالي.

(٨) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ٦٤.

الداخل وليس من الخارج. الإسلام دين به الإصلاح، لأنه حصيلة التجربتين اليهودية والمسيحية، وبه التنوير فلا يحتاج إلى تنوير خارجي.

ثم يبيّن محمد عبده أسباب قوة العلم والفلسفة والمدنية في أوروبا، ويجدها أربعة:

١ ـ الجمعيات العلمية بما في ذلك الماسونية التي انخدع بها الأفغاني قبل أن يكتشف دوافعها السرية. فقد قامت هذه الجمعيات بما قامت به دور الحكمة في العواصم الإسلامية، وبلاط الخلفاء الذي كان محفلاً للعلوم والآداب.

٢ ـ شدة ضغط الدين على العقل مما ولّد تمسك العقل بالقيمة كبديل من الدين، فأصبحت الأخلاق والعلوم والفنون وظيفة الدين. فقد أخذ الغربيون مضمون الدين وتركوا صورته، وهذا هو أحد أسباب تقدمهم، وأخذ المسلمون صورة الدين وتركوا مضمونه، وهذا هو أحد أسباب تأخرهم.

٣ ـ الثورة الفرنسية وما أعطته لأوروبا من ثقة بالنفس في البحث عن الحقيقة، وفي مقاومة السلطتين الدينية والسياسية، وما قدمته من مثل التنوير، والعقل، والعلم، أي حرية الإرادة وقوانين الطبيعة، والمساواة والعدالة الاجتماعية، والتقدم والعمران، وهي مشابهة لأصول الإسلام. ففي الغرب إسلام بلا مسلمين، وفي الشرق مسلمون بلا إسلام.

٤ ـ ترك المسيحية واستبعادها من الحياة العامة، وإبقاؤها علاقة شخصية بين الإنسان والله تحقيقاً للحديث «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

حاول فرح أنطون تمثُّل الاستشراق والترويج له اعتماداً على رينان. وحاول محمد عبده تأسيس علم الاستغراب اعتماداً على تجاربه الشخصية ومعرفته بحياة الأوروبيين وإقامته بينهم عندما لحق بأستاذه الأفغاني منفياً إلى باريس. الأول يمثّل الخارج ويجعله نمطاً للداخل ونموذجاً له، والثاني يمثل الداخل ويجعله نمطاً للخارج ونموذجاً له. ويشعر فرح أنطون بذلك ويحاول مجابهة محمد عبده بقاسم أمين، فالمسلمون أيضاً مدافعون عن العلمانية، النمط الغربي للتحديث، كما فعل علي عبد الرازق بعد ذلك. والحقيقة، إن القياس الحضاري خطأ لا يقع فيه نصارى الشام ومصر وحدهم بل مسلموهم أيضاً. القضية هي في الموقف الحضاري، وفي القدرة على الإحساس بالتمايز بين الأنا والآخر، وعلى نقد الآخر قدر الانبهار به، وعلى الثقة بالنفس وأصالتها قدر نقدها، حتى لا يُكال بمكيالين، فنقع في الأحكام المطلقة: الخير كله من الغير، والشر كله من النفس.